ملخص كتاب: "الرجل ذو السروال الأحمر"

تأليف: عبدالرحمن جرين

من إصدارات مركز دلائل للدراسات ١٤٣٧هـ

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



في البداية ينبغي أن نتفق أن العالم الذي نعيش فيه هو عالم حقيقي، وأنا وأنت وكل شيء حولنا موجود حقيقة، ولسنا عبارة عن عالم وهمي أنتجه حاسوب ما، أو أننا في حلم ما هذا أولا!

ثانيا: ينبغي أن نعرف أن هناك أموراً نعدها «حقائق عامة»، وإن لم يتفق معها أحد فقد نعتبره مجنوناً. كمثال مبدأ: «الجزء من الشيء هو أقل من مجموعه» هو: بديهة عامة بمعنى أنها واضحة بشكل لا يحتاج لشرح، هل توافقني؟ هاك مثالا آخر: «الشيء لا يأتي من عدم» أو «النظام لا ينتج عفويّاً عن الفوضى». حسنًا ما دمنا متفقين، فما الذي قد يدفعنا لنعتقد أن شيئاً ينتج من اللاشيء أو العدم؟ أو أن النظام ينتج عفويّاً عن الفوضى؟ لا شيء !

إن كل ما نختبره باستمرار، هو أنه كلما كان هناك ترتيب أو شكل أو أنظمة: فإن لها مُرتِّب أو مُشكِّل أو مُنظِّم، وكلما زاد التعقيد والترتيب في الأنظمة؛ زاد مستوى الذكاء لتشكيلها. إن العلم يعتقد أن القوانين التي تنظم الكون منضبطة بشكل لا يسمح للحياة أن توجد من غير هذه الدرجة من الضبط الدقيق. ويمكن أن يلاحظ ذلك فيما يسمى بالثوابت الطبيعية. فإن كان المنطق السليم والعقل يشيران قطعا إلى وجود تصميم ذكي مسبوق بإرادة، فما هي الاستنتاجات الأخرى التي يمكن أن نصل إليها عبر هذا المنطق؟

أحد هذه الاستنتاجات التي يمكن أن نصل إليها، أن طبيعة مصدر هذا الذكاء والإرادة يجب أن تختلف عن طبيعة الكون الذي صنعه. لماذا؟ لأنهما إن كانا متشابهين، فكل ما سنحصل عليه هو المزيد من التشابه، أي المزيد من المصنوع، وعندها يمكن لسائل أن يسأل: من صنع هذا الصانع؟ طبعاً هو شيء أكثر قوة وإرادة وذكاء، ثم بالطبع سنسأل السؤال نفسه عن صانع الصانع: من الذي صنع الصانع هذا، وهكذا سنبقى على هذا الحال إلى الأبد، نبحث عن الإرادة والذكاء الكائنين وراء ذينك الإرادة والذكاء، صانع يصنع صانعاً يصنع صانعاً إلى ما لا نهاية! هناك خطأ منطقيا فما هو البديل إذن؟ البديل هو سبب أول، سبب لا مسبب له! نستطيع أن نستنتج أن طبيعة القوة الذكية ذات الإرادة ما وراء الكون، والحياة وكل شيء، يجب أن يكون لها طبيعة مختلفة عن الخلق، وكما رأينا: هناك أسباب تضطرنا إلى هذا الاعتقاد.

فإذا كان المصنوع بطبيعته ذا حاجة، ومؤقتا، ومحدودا بالزمان والمكان؛ فإن الصانع يجب أن يكون غير محتاج لأحد، وأبديا، وغير محدود. ولهذا فإنه من المنطق السليم الاعتقاد بخالق واحد أبدي صمد .

حسنا إذا سلمنا بوجود الخالق، فلماذا يوجد معاناة في هذا العالم؟ إذا كان الخالق موجوداً فكيف يسمح للأمور السيئة أن تحصل؟ وما هو الهدف من الحياة؟ إن الحاجة إلى معرفة سبب وجودنا وإلى أين نحن ذاهبون هي مهمة كأهمية الطعام والشراب! قد يكون هنالك العديد من الإجابات الممكنة لهذه الأسئلة، وبالنظر إلى مختلف الأفكار التي نتجت عن العقل البشري، نرى أن العقل ليس أفضل ما يمكن استخدامه للوصول إلى أجوبة عن هذه الأسئلة المربكة؛ لأن ما نريده ليس أية أجوبة، بل نريد الأجوبة الصحيحة منها. المشكلة هنا هي حقيقةً أن العقل لا يفلح في هذا المجال. بالطبع ما زلنا نحتاج العقل، ولكن ليس كمصدر مباشر للمعلومات حول هذه المسائل، لكن نحتاج العقل لنحدد بأي مصدر آخر نستطيع أن نثق .

الديانات في العموم، لها زعم خاص، زعم أنها تحمل رسالة من الخالق، فإذا كان هذا الخالق الحكيم قرر أن يرسل لنا رسالة، فمن المنطقي أن تكون ثابتة غير متفاوتة، وبما أن الديانات المختلفة لها مزاعم متناقضة، فلا يمكن أن يكونوا جميعاً على حق! لكن التحدي هنا هو تحديد أي هذه الديانات على حق! إن الديانة الحقيقية (إن كانت موجودة) يجب أن يكون لديها هوية، يجب أن يكون لديها محددات نعرف من خلالها أن أصلها من عند الخالق. فما هي الاختبارات التي نستطيع تطبيقها على الديانات لتمييزها؟ الاختبار الأول، وربما كان الأفضل والأكثر إقناعاً، والذي يتركنا مع خيارات قليلة للغاية، هو: ما الذي تخبره هذه الديانة عن الخالق بالضبط؟ أي الديانات تخبر أن الخالق واحد فريد ذو طبيعة لا تشبه شيئاً من الخلق: خالق فرد، أزلي، صمد، منزه، متعالٍ؟ في ضوء ذلك فإن لدينا بشكل مثير للجدل ربما، ثلاث ديانات يمكن أن تدخل في المنافسة: اليهودية والزرادشتية والإسلام فقط. وقد يدّعي المسيحيون أن لديهم الحق في الوجود على هذه القائمة، لكن على الأقل من موقع الاعتقاد المسيحي الطبيعي، فالمسيحية يجب أن تلحق باقي الديانات الوضعية بسبب تحريفها للمفهوم عن الخالق الواحد المنزه والذي حرفته بفكرة الثالوث.

طبقنا حتى الآن اختباراً واحداً لمعرفة ما إذا كان زعم بعض الديانات أنها من الخالق مقبولا أو مرفوضا. هل تتوافق مع الأساس المنطقي الذي من خلاله وصلنا إلى أن هناك خالقاً واحداً فريداً أزليّاً صمداً، لا يشبه الخلق، منزهاً عنه؟ هل هناك أي معيار آخر نستطيع أن نقلص به لائحة المرشحين؟! هناك اختبارات أخرى نستطيع تطبيقها لنعلم إذا كانت الهوية صحيحة أم لا. إحدى هذه الطرق المنطقية نوعا ما هي أن تكون الرسالة عالمية بمعنى أن هذه الرسالة من الخالق يجب أن تكون للجميع، بما أن جميع البشر لديهم القدرة العقلية لفهم أسباب وجود الخالق، والقدرة على طرح هذه الأسئلة العميقة عن سبب الوجود والحياة والموت والكون وكل شيء، فإنه من غير المعقول أن الخالق سيعطي الهداية لمجموعة مختارة من الناس ويستبعد البقية. ماذا لو كنا لسنا من هذه المجموعة ماذا علينا أن نفعل؟ ماذا يحصل لنا؟ قد يبدو غريباً أن الخالق القادر على أن يؤمّن لكل فرد الاحتياجات الجسدية، لا يؤمّن الاحتياجات النفسية والعقلية والروحية، الاحتياجات الكبرى، التي هي أجوبة الأسئلة الكبرى! هذا السبب يستبعد الديانة اليهودية، فاليهودية جيدة إذا كنت مولوداً من أم يهودية فقط، لكنها ليست جيدة في غير هذا الحال !

هذا يتركنا مع متنافسين اثنين: الزرادشتية والإسلام. هناك عدة أسباب لماذا يتفوق الإسلام على الزرادشتية، أولاً أن الإسلام يدعي أن رسالته عالمية لكل الناس، ومن اللافت للنظر أن كلمة إسلام تعني الخضوع والاستسلام للخالق. فالمسلم إذن هو من يدعي الطاعة والانقياد لهداية الخالق، وهو يدعي أيضاً أن الرسالة الأساسية هي الإيمان والانقياد لله الواحد المنزه المتفرد، وهي الرسالة الأساسية التي أرسلها الله عبر أشخاص مميزين مختارين والمسمّين بالرسل أو الأنبياء، فاسم هذه الديانة ليس مرتبطاً بشخص أو مكان معين، اليهودية (يهوذا)، المسيحية (المسيح)، البوذية (بوذا)، الهندوسية (الهند)، الزرادشتية (زرادشت)، كلها مرتبطة بأسماء أشخاص أو أماكن، أما في الإسلام فالحال ليس كهذا، فالرسالة الأساسية للإسلام أن هناك خالقاً متفردا يجب أن نتبع هدايته، وهو أمر يستطيع أي أحد الوصول إليه واستنتاجه، وكفكرة فإن الإسلام – الاستسلام لإله واحد – هي فكرة عالمية بحق .

هناك أيضاً بعض الاختبارات التي يمكن أن تطبق. الأول مرتبط بطابع وشخصية الفرد المدّعي، فإذا كان الشخص الذي يدعي حمل الرسالة من الخالق معروفاً بالصدق والأمانة والإخلاص، فسيصبح من السهل قبول أن ما يقول هذا الرجل هو الصدق بما يتعلق بالرسالة التي يحملها من الخالق، إن صحة النصوص أمر ذو أهمية، وهذا من مشكلات الزرادشتية، فلا شيء محفوظ من كتابات أو أقوال زرادشت الفعلية، وما بقي إلا الطقوس الدينية، وبعض الأفكار من اللاهوت، لكن كلامه الأصلي مفقود بشكل أو بآخر. وفي هذا المجال يتميز القرآن ويتفوق حقاً، الكتاب المقدس الرئيسي في الإسلام، فليس هنالك جدل حول صحة النص القرآني، وفي الحقيقة يمكن لأي شخص أن يأخذ نسخة من القرآن من أي مسجد في أي مكان في العالم، ويستطيع مقارنتها مع المخطوطات المحفوظة التي تعود لثلاثين سنة بعد وفاة الرسول محمد وسيجد أن النص دون تغيير إلا من ناحية طريقة الكتابة وبعض علامات التشكيل التي تساعد في النطق، وهذا شيء لافت للنظر لنص عمره فوق الألف والأربعمئة عام .

ومن الأسباب المنطقية لقبول الإسلام: أولا؛ أن ما يقوله القرآن عن الخالق يطابق ما قد يفهمه منطقيّاً أي شخص عن الخالق في أي مكان، أي أن هناك خالق فرد ليس كالخلق، ويوجد العديد من الآيات في القرآن تشرح هذه الفكرة، مثل: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) (الإخلاص:١ – ٤). ثانياً؛ مما يصب في مصلحة الإسلام أن التنزيل محفوظ بطريقة استثنائية، فتاريخ هذا الحفظ وحده جدير بالدراسة، ثالث الأسباب الذي يجب أن ننتبه له؛ هو أن رسالة الإسلام عالمية، أي أنها لكل الناس، بغض النظر عن العرق والمكانة الاجتماعية، وهذا واضح في التعاليم التي تقول إن الله لا ينظر إلى لون الشخص وعرقه وقبيلته ومستواه المادي ومكانته، ولكن ينظر إلى قلب الشخص وخيريته وعمله. هل هناك أي شيء آخر يساعدنا لقبول زعم أن القرآن هو من عند خالق السماوات والأرض؟ القرآن نفسه يعطي اختباراً للصحة، وهذا طبعاً اختبار جيد يمكن تطبيقه على أي كتاب يزعم أنه من عند الخالق: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء: ٨٢). النقطة هنا أنه إذا كان الكتاب من عند خالق كل شيء، فمن المنطقي استنتاج أن هذا الخالق الفريد يجب

أن يكون ذا حكمة وذكاء عظيمين، لمستوى يتخطى الإدراك البشري، ومن المؤكد أن يتوقع الشخص أن الخالق عنده علم عن عمل الطبيعة والكون، وعن الأحداث في تاريخ البشرية. ومن المثير للدهشة أن القرآن ليس فقط خالياً من التناقضات، بل إن له أقوالا عن التاريخ، والتوحيد والفلسفة، وعن القانون والعالم الطبيعي، وهذه الأقوال تتحدى التفسير البشري. من أين أتى محمد بكل هذه المعلومات إذا لم تكن من عند الله؟ عند قراءة القرآن تراه خالياً بوضوح من مثل هذه الأساطير والخرافات عن خلق الكون والعالم الطبيعي، القرآن ليس كتاباً علميّاً، بل كتاب إشارات وآيات، ولكن ليس من السهل أن نفهم كيف لمحمد أن يذكر هذه الأشياء في القرآن إن لم يكن نبيّاً، ويبدو أن قبول هذا الأمر هو ما ينبغي أن يفعله أي شخص صادق عقلاني .

ما هي إذن التعاليم الأساسية للقرآن؟ أول ما يجب قبوله هو أن هناك إلهاً واحداً، وأنه لا يشبه شيئاً، ولا شيء مثله، وأن الله واحد لا شريك له، وعلينا أن نصلي ونتعبد للخالق فقط. أما كيفية الصلاة وعبادة الخالق والاهتداء بهديه، فهنا يأتي دور النبي محمد عليه الصلاة والسلام، والقرآن يخبرنا أن كل أنبياء الله ورسله للبشر كانوا بشراً، هذا لأنهم ليسوا فقط حاملين للرسالة، بل ليكونوا مثالا عمليا لتطبيق هذه الرسالة، وهذا منطقي، لأنه إذا كان واحد من البشر يستطيع فعل هذا، فنظريّاً على الأقل كلنا نستطيع أيضا، ولو كان رسول الله ملَكاً من السماء، لكنا اختلقنا الأعذار عن عدم قدرتنا أن نكون كالملائكة. يخبرنا القرآن أيضًا أن الحياة اختبار، لهذا يوجد فرح وحزن، صحة ومرض، غنى وفقر، خير وشر، ليل ونهار، نور وظلام، ونعرف الشيء من خلال نقيضه، فكيف لنا أن نقدّر الخير إن لم يكن هناك شر، وكيف أننا في كثير من الأحيان لا نقدر الصحة إلا عند المرض؟ فالاختبار هو أن ندرك طبيعة أنفسنا، هل سنقبل الحقيقة أم سنتبع شهواتنا؟ هل سنطيع الخالق أم سنعصيه؟ فقد أعطانا الله الهداية والاختيار، وعلينا استخدام عقولنا وذكائنا لنفهم ونتبع هذا الهدي، إن أخطأنا وهذا محتم فنحن بشر، فعلينا أن نعلم أننا طالما التزمنا بسؤال الله الهداية وطلب المغفرة وبذل ما في استطاعتنا لتغيير أنفسنا للأفضل، فإن الله سيغفر لنا. إن فهمنا هذا

لمحدوديتنا في الواقع وعظمة الله هو جوهر ما يدعو له الإسلام، ولهذا يجب على الإنسان أن يستسلم ويخضع لله وهذا ما يعنيه الإسلام حقاً .

إن سبب وجودنا والهدف الأساسي هو لنفهم ونحاول فعل كل شيء بطريقة ترضي الخالق، ونعلم كيف نفعل هذا بهداية الخالق التي أعطانا إياها، وهذا من أجل أن يساعدنا لنعيش بالشكل الأكثر فاعلية وإنتاجاً، ونبقى ثابتين على هذا الطريق، وقد جعل الخالق عنصراً أساسيّاً في طريقة الحياة هذه هو القيام بأعمال تعبدية منتظمة في حياتنا، ليس لأن الله يحتاج هذه العبادة، أبداً! بل الله لا حاجة له لأحد، فهو غني عن العالمين مكتفٍ بذاته؛ ولكننا خُلقنا بهذه الحاجة، مثلما تحتاج أجسادنا إلى الطعام، فعقولنا وأرواحنا تحيا بذكر الله وعبادته. لهذا السبب فإن أهم عمل على المسلم (من يتبع دين الإسلام) القيام به هو أن يصلي لله بطريقة محددة في أوقات محددة .

إن اتباع الإسلام لا يعني أنه لن يكون هناك أي اختبارات وابتلاءات أخرى في الحياة، بل إن الخالق في الواقع يخبرنا إننا لن نترك أن نقول إننا آمنا من غير اختبار. واتباع هدى الله يعلمنا كيف نتعامل مع هذه الاختبارات، وبهدايته يتحول العسر إلى يسر، والارتباك إلى فهم، والألم إلى رضا، والحزن إلى سعادة. معرفة هذا واتباعه يجلب السلام الحقيقي إلى القلوب، وفي هذا المنظور فالإسلام حقّاً يجلب السلام، سلام لا يعني فقط غياب الحرب، بل سلام أكثر عمقاً وصفاء .

الجزء الصعب ليس في فهم منطقية هذا الأمر، الجزء الصعب حقّاً هو في تطبيقه! ولكن في الحقيقة، وبصراحة: حتى ذلك ليس صعباً جدّاً! عليك فقط أن تبدأ بنية جازمة أنك ستفعل هذا؛ لأنه هذا هو ما يريده الخالق الواحد الذي خلقك! ثم لمَ لا تجرب أن تطلب المساعدة، نعم فقط جرب واطلب من خالق كل شيء، واسأله وحده، ليس بواسطة أحد أو أي شيء، بشكل مباشر مع الخالق، بصدق وإخلاص نابع من قلبك ليهديك ويدلك لفعل الصواب.